الجمر وأصابع القيصر

الكاتب : غسان شربل

التاريخ : 27 أكتوبر 2015 م

المشاهدات : 4192

ما هرب منه باراك أوباما وقع فيه فلاديمير بوتين. من موقع آخر وحسابات أخرى. إنه الانخراط العسكري المباشر في الحريق السوري. وهذا يعني تحمل عبء الأزمة. وربط صورته وهيبة بلاده بمسارها ومصيرها. ولأن بوتين لا ينوي شن حرب برية واسعة فهذا يعني أنه حرّك جمر الحرب السورية لاستعجال الحل. لكن البحث عن حل في سورية أكثر صعوبة من الاستمرار في الحرب. أدخل القيصر يديه وبلاده في حقل الجمر السوري.

يعرف بوتين أن سورية السابقة قتلت في الحرب. ويعرف أن الحريق السوري هو مجموعة حروب متداخلة ومتشابكة. هناك حرب بين معارضة ونظام لم يعتد على رؤية معارضة ومعارضين. بنيته لا تسمح بفتح النوافذ. وهناك حرب بين مكونين سوريين لا يمكن فصلها عن النزاع السني ـ الشيعي في الإقليم. وهناك مكون كردي تعلم من أكراد العراق ألا يضيع الفرصة الذهبية التي قد لا تتكرر.

هناك أيضاً حرب بين ما تبقى من النظام وإرهابيين وفدوا من بلدان قريبة وبعيدة. وحرب يأمل فريق بأن تؤدي إلى تقطيع أوصال «الهلال الإيراني» بينما يأمل الآخر بترميم خريطة هذا الهلال. وحرب على الموقع الأول في الإقليم وملامح النظام الإقليمي الجديد. وحرب على النفوذ الدولي في سورية المتهالكة والشرق الأوسط المريض. وهناك سقوط الحدود والتعايش

وهجرة مجموعات وتهجير جماعات.

انتظر بوتين نتائج الاستنزاف الكبير. انحسرت مناطق النظام وأُصيب جيشه بالوهن. فشلت إيران في لعب دور الدولة الكبرى المحلية. لم تستطع قلب مسار الأحداث عبر خبرائها والميليشيات الحليفة. بدت تركيا منشغلة بالأحداث على أرضها. والسعودية بالنزاع الدائر في اليمن. وأوروبا بأمواج اللاجئين. وبدا أوباما سعيداً بإبعاد أصابعه عن الجمر السوري. طلب النظام السوري من الكرملين إنقاذه فرد بعملية جوية مشروطة لا بحرب برية مفتوحة.

لهذا، بدا بوتين كمن ينظر إلى ساعته. حرص على استقبال الرئيس بشار الأسد قبل أن يؤدي التدخل الروسي إلى تغييرات ميدانية بارزة. للتوقيت معناه. ربما تخوف أن يؤدي أي تحول ميداني إلى اقتناع النظام بأنه لا يحتاج إلى تقديم تنازلات. استقبل الرئيس السوري وحده. كأنه يلقي عليه شخصيًا عبء تقديم التنازلات الضرورية لإطلاق الحل. التنازلات الضرورية لمنع «الجنرال وقت» من تحويل التدخل الروسي إلى تورط روسي.

فور شيوع نبأ الزيارة سارع بوتين إلى ديبلوماسية الهاتف.

بدأ بالاتصال بالدول الأكثر إلحاحاً على مغادرة الأسد. أراد الإيحاء بأنه حصل على ما يفتح كوة في الجدار. وهذا ما أشار إليه اللقاء الرباعي في فيينا. لم يكن متوقعاً أن يحمل لافروف إلى ذلك اللقاء كلاماً قاطعاً أو واضحاً حول مستقبل الرئيس السوري. لا تحسم المفاوضات المعقدة في بداياتها.

مفيد أن يكون لك حليف كبير. وأن يهبّ لمساعدتك حين تناديه. لكن الدول الكبرى ليست جمعيات خيرية. لاستجابتها ثمن لا بد من دفعه. وهكذا تقدمت أجندة موسكو على أجندة دمشق. دخل لقاء فيينا في تفاصيل الحل وهو ما كانت دمشق تفضل إرجاء البحث فيه إلى ما بعد الانتصار على الإرهاب.

أكثر من ذلك. بدا لافروف كمن ينظر إلى ساعته. سارع إلى إطلاق الاقتراحات ولو مرفقة ببعض الالتباسات. بدأ يلوح بتوزيع الضمادات والضمانات. وصل به الأمر حد اكتشاف وجود «الجيش الحر» وعرض مساعدة جوية روسية عليه في الحرب على «داعش».

الحل الداخلي ليس بسيطاً. لا بد من حل يرضي السنّة ويطمئن العلويين ويقبله الأكراد. ولا بد من توازنات ترضي تركيا والسعودية وإيران. وهذه ليست بسيطة أيضاً. ليس هناك من حل يعيد إلى إيران ما كانت عليه في سورية قبل اندلاع الأحداث. لم تعد هذه الحلقة من «الهلال» مضمونة. الأمر يعني أيضاً «حزب الله» في لبنان.

أدخل بوتين يديه في الجمر السوري. يحصل سريعاً من النظام وإيران على تنازلات تكفي لإطلاق حل أو يتحول التدخل تورطاً وخيم العواقب. «الجنرال وقت» لا يرحم. وإذا حصل ذلك فإن البحث سينتقل من إنقاذ سورية على يد روسيا إلى البحث في إنقاذ روسيا من مغامرتها في سورية.

الحياة اللندنية

المصادر: